الفيلسوف القتيل :

شهاب الدين السهروردى

للأســـتاذ أحمد أحمد بدوى

شخصية أضفى عليها مصيرها المحزن كثيراً من الخيالات . فمن معجب يدافع عنها ويضيف إلى محاسنها ، ومن ناقم يحقرها ويزيد فى مثالبها . وقد اختلف مؤرخوه حتى فى اسمه ؛ فقال بعضهم : هو أحمد ، وقيل كنيته اسمه ، وهى أبو الفتوح ، وذكر ابن أبى أصيبعة أن اسمه عمر ، وارتضى ابن خلكان أن اسمه يحيى ابن حبش الملقب بالمؤيد بالملكوت .

ولد فى سهرورد ، وهى بليدة فى العراق العجمى ، حول سنة ٥٤٩ ، ودرس الفلسفة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجيلى بمدينة المراغة ، من أعمال أذربيجان ، حتى برع فيهما . ومجد الدين الجيلى هذا هو شيخ فخر الدين الرازى ، عليه تخرج وبعلمه انتفع ، وكان بارعاً فى فنونه . وقد دارت بين تلميذيه : الفخر والشهاب مباحثات كثيرة . ودرس السهروردى إلى جانب الفلسفة علم الكلام والمنطق . ويقال إنه كان يعانى السيمياء وأبواب التر نجيات ، وهى أشياء تشبه السحر لا حقيقة لها ، وأوردوا له فى ذلك قصصاً .

والظاهر أنه كان على درجة عالية من الذكاء وفصاحة العبارة والمقدرة الجدلية ؛ كان الشيخ فخر الدين المارديني يقول عنه : ما أذكى هذا الشاب وأفصحه ! لم أجد أحداً مثله فى زمانى إلا أنى أخشى عليه لكثرة تهوره واستهتاره وقلة تحفظه أن يكون ذلك أتلفه . ويبدو أن نظرة المارديني إليه كانت صادقة ؛ فإن اندفاعه فى إعلان آرائه كان سبب رداه ، فقد مضى إلى حلب ، وأعلن آراءه بها ، وكان ذلك سنة ٥٧٥ ، واستمال خلقاً كثيراً بتهوره . ولست أدرى إن كان اتباعهم إياه اتباعاً لآرائه الفلسفية ، أو اتباعا لسيميائه ونيرنجياته إذا صح علمه بهما . واتصل بالظاهر غازى بن صلاح الدين . وهنا يختلف المؤرخون ؛ فمن قائل : إنه عند ما اتصل بالظاهر أعجبه كلامه ، ومال إليه ، وأحضر أكابر المدرسين والفقهاء والمتكلمين ، ليسمع ما يجرى بينهم وبينه من المباحث ، فناظره العلماء ، فظهر عليهم بعبارته ، فحسن موقعه عند الظاهر وقربه ، فازداد تشنيع العلماء عليه ، وكتبوا محاضر بكفره ، وأرسلوها إلى دمشق إلى صلاح الدين ، وقالوا : إن بقى هذا فإنه يفسد اعتقاد الملك الظاهر ، وكذلك إن أطلق ، فإنه يفسد أى ناحية كان بها من البلاد ، وزادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك . فبعث صلاح الدين إلى ولده كتاباً بخط القاضى الفاضل يقول فيه إن هذا الشهاب السهروردى لا بد من قتله ، ولا سبيل إلى أن يطلق أو يبقى بوجه من الوجوه . ومن قائل : إنه عند ما حضر إلى حلب أفتى علماؤها بإباحة قتله ، بسبب اعتقاده ، وما ظهر لهم من سوء مذهبه ، وكان أشد الجماعة عليه الشيخان : زين الدين ومجد الدين ابنا حميد ، فحبسه الظاهر ثم قتله بإشارة والده .

ويختلفون فى طريقة قتله ، فقال بعضهم : قتل خنقاً ، وقال آخرون : إنه اختار أن يترك فى مكان منفرد ، ويمنع من الطعام والشراب ، حتى يلاقى الله تعالى ، ففعل به ذلك . وقال بعضهم : إنه قتل وصلب أياماً . والذى أرجحه من ذلك رواية ابن شداد من أن الظاهر قبض عليه لما بلغه من خبره ، ثم عرف السلطان به ، فأمر بقتله فقتله ، وكان ذلك سنة ٥٨٧ وسنه نحو ستة وثلاثين عاماً .

لم أقرأ كتب الشهاب كلها حتى أستطيع تحديد آرائه المخالفة لآراء الجمهور . ويبدو أن اندفاعه فى إبداء أفكاره من غير تقييد لها كان سبب هذا القتل ؛ فقد قال له العلماء : إنك قلت فى بعض تصانيفك : إن الله قادر على أن يرسل نبياً ، وهذا مستحيل . فقال : ما وجه استحالته ؟ فإن الله القادر لا يمتنع عليه شىء . فلم يفرق أسائليه بين الممكن فى حد ذاته ، وللممكن الذى أخبر القرآن بأنه لن يقع .

واتهموه بإبطال العقيدة والتعطيل ، واعتقاد مذهب الحكماء المتقدمين . ولكن ما أثر عنه ينفى ذلك ، فقد رووا من دعائه قوله : اللهم يا قيام الوجود ، وفائض الجود ، ومنزل البركات ، ومنتهى الرغبات ، منور النور ، ومدبر الأمور ، واهب الحياة للعالمين ، امددنا بنورك ، ووفقنا لمرضاتك ، وألهمنا رشدك ، وطهرنا من رجس الظلمات ، وخلصنا من غسق الطبيعة إلى

مشاهدة أنوارك ، ومعاينة أضوائك ومجاورة مقربيك ، وموافقة سكان ملكوتك ، واحشرنا مع الذين أنعمت عليهم من الملائكة والصديقين ، والأنبياء والمرسلين » . وأثر عنه مناجاة جاء فيها : « إلهي وإله جميع الموجودات : من المعقولات والمحسوسات ، ياواهب النفوس والعقول ، ومخترع ماهيات الأركان والأصول ، يا واجب الوجود ، ويا فائض الجود ، يا جاعل القلوب والأرواح ، ويا فاعل الصور والأشباح ، يا نور الأنوار ، ومدبر كل دوار ، أنت الأول الذي لا أول قبلك ، وأنت الآخر الذي لا آخر بعدك . الملائكة عاجزون عن إدراك جلالك ، والناس قاصرون عن معرفة كمال ذاتك . اللهم خلصنا من العلائق الدنية الجسمانية ، ونجنا من العوائق الردية الظلمانية . أرسل على أرواحنا شوارق أنوارك ، وأفض على نفوسنا بوارق آثارك . العقل قطرة من قطرات بحار ملكوتك ، والنفس شعلة من شعلات نار جبروتك . ذاتك ذات فياضة ، تفيض منها جواهر روحانية ، لامتمكنة ولا متحيزة ولا متصلة ، ولا منفصلة ، مبرأة عن الأحياز والأين ، ممراة عن الوصل والبين ، فسبحان الذي لا تدركه الأبصار ، ولا تمثله الأفكار . لك الحمد والثناء ، ولك المنع والعطاء ، ولك الجود والبقاء ، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون »

والظاهر أن نسبته إلى التعطيل جاءت من أنه كان يرى رأي المعتزلة الذين لا يرون الصفات شيئاً خارجاً من الذات ، وهو يقول عن ذلك في كتابه : هياكل النور : « والصفة لا تجب بذاتها وإلا ما احتاجت إلى محلها ، فواجب الوجود ليس محلا للصفات ولا يجوز أن يوجد هو في ذاته صفات . فإن الشيء الواحد لا يتأثر عن ذاته . ونحن إذا تصرفنا في مقولنا يكون الفاعل شيئاً والقابل شيئاً آخر . فواجب الوجود واحد من جميع الوجوه ؛ ولكن ليس معنى هذا نفي الصفات عن واجب الوجود . وقد أثبت له هذه الصفات ؛ إذ قال في هياكل النور . « وله من كل متقابلين أشرفهما ، وكيف يعطي الكمال من هو قاصر ؟ وكل ما يوجب تكثيراً من تجسيم أو تركيب ممتنع عليه تعالى ؛ والحق لا ضد ولا ند له ، ولا يقتضب إلى ابن ، وله الجلال الأعلى ، والكمال الأتم ، والشرف الأعظم ، والنور الأشد : ليس بعرض فيحتاج إلى حامل يقوم به وجوده ، ولا بجوهر فيشارك الجواهر في حقيقة الجوهرية ، ويفتقر إلى مخصص دلت عليه الأجسام باختلاف هيئاتها . فلولا مخصصها لما اختلفت أشكالها ومقاديرها وصورها وأعراضها وحركاتها . وما أوردناه من مناجاته ودعائه ، وما قدم به كتابه هياكل النور يدل على أنه يثبت لله صفات الكمال الأسمى ...

والشهاب يسير في إثبات وجود واجب الوجود ، وما هو عليه من كمال على طريق الفلاسفة الذين يعتمدون على الدليل العقلي ؛ كما ترى ذلك في كتابه المشارع والمطارحات (ص ١٢٧) . وكتابه هياكل النور .

لست أدري كيف تسبوه إلى الإلحاد وما أوردناه من كلامه لا يدل على إلحاد ولا زندقة ! وكيف نحكم بالإلحاد على رجل يقول : « فوحد الله ، وأنت بتعظيمه ملآن ، واذكره وأنت من ملابس الأكوان عريان ، ولو كان في الوجود شمسان ، لانطمست الأركان » ؛ ويثبت وحدانية واجب الوجود بقوله في هياكل النور (ص ٥) : « لا يصح أن يكون شيئان هما واجبا الوجود لأنهما لو اشتركا في جوب الوجود فلابد من فارق بينهما ، فيتوقف وجود أحدهما أو كليهما على الفارق ، ولا يمكن أن يكون شيئان لا فارق بينهما فإنهما يكونان واحداً » ويقول (ص١٢) : « ويجب على المستبصر أن يعتقد صحة النبوات » ؛ ويرى أرواحنا نوراً حادثاً خلقه الله إذ يقول (ص ٦ من هياكل النور) : « ونفوسنا الناطقة أنوار حادثة ولها مرجع ولا توجدها الأجسام ، إذ لا يوجد الشيء وما هو أشرف منه ، فرجعه أيضاً نور مجرد ، بان كان واجب الوجود فهو المراد ، وإن أمكن فينتهي إلى واجب الوجود الحي القيوم . وكان يدعو واجب الوجود نور الأنوار ، ولست أرى في ذلك أكثر مما أجده في قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض » .

أما مذهبه في التصوف فمذهب الإشراقيين الذين يرون المعرفة إنما تنال بإشراق منه تعالى على قلوب مريديه ، وله في ذلك كتاب حكمة الإشراق ، وحدثنا عن ذلك بقوله في الهيكل الثامن : « النفوس الناطقة من جوهر الملكوت ، وإنما يشغلها عن عالمها هذه القوى البدنية ومشاغلها ، فإذا قويت النفس بالفضائل الروحانية ، وضعف سلطان القوى بتقليل الطعام والشراب ،

وتكثير السهر ، تخلص النفس أحياناً إلى عالم القدس ، وتتلقى منه المعارف والغيبات ، فى نومها ويقظتها ، كمرآة تنقش بمقابلة ذى نقش ... فيشاهد [المريد] صوراً عجيبة تتراءى له ، أو يسمع كلمات منظومة ، أو يتجلى الأمر الغيبى » ؛ ومن أجل ذلك يرى أجسادنا الظلمة لا تستطيع أن تلج ملكوت السموات الذى تصل إليه الروح التى هى نور من أنواره تعالى ، منه مشرقها وإليه مغربها ، وهى لذلك تحن إلى مصدرها . وله فى ذلك شعر قاله على مثال أبيات ابن سينا العينية بدأه بقوله :

خلعت هياكلها بمرعاه الحمى وصبت لمغناها القديم تشوقا

وله أيضاً شعر على مذهب المتصوفة الذين يشتاقون الوصول إلى الحق ، والاتصال بالنور الأسمى ، كقوله :

أبداً نحن إليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم وإلى لذيذ لقائكم ترتاح
وارحمتا للعاشقين تكلفوا ستر المحبة والهوى فضاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء العاشقين تباح
وإذا هم كتموا تحدث عنهمو عند الوشاة المدمع السفاح

وكان الشهاب يؤمن بكرامات الأولياء التى قد يكون منها أن تخضع العناصر لإرادة الصوفى ، وقد قال عن ذلك فى كتاب الهياكل (ص ١٢) . « وقد تطرب النفوس المتألهة طرباً قدسياً ، فيشرق عليها نور الحق الأول تعالى ، فتخضع لها العنصريات ، ولما رأيت الحديدة الحامية تتشبه بالنار بمجاورتها ، وتفعل فعلها ، فلا تتعجب إن أشرقت النفس ، واستضاءت بنور الله تعالى ، فأطاعتها الأكوان إطاعتها للقديسين » .

فالشهاب — كما يبدو لى — رجل صوفى ، جمع إلى ثقافته الدينية ، وعقيدته الإسلامية ، ثقافته بفلسفة الإغريق وحكمتهم ، من غير أن يخرجه ذلك عن حدود الإسلام ، ومن أجل هذا أرى صلاح الدين قد تسرع بإصدار الحكم عليه بالقتل ، وأن العلماء الذين أفتوا بذلك ، فيهم صلاح الدين — كانوا مخطئين ؛ فليس ما خالف مذهب أهل السنة يعد كفراً وزندقة . ويقال : إن الملك الظاهر ندم على قتله ، وانتقم من الذين أفتوا بإباحة دمه ، وقبض على جماعة منهم ، واعتقلهم .

هذا ، ولابد أن قد كان لهذا القتل أثره فى إخفات صوت الفلسفة ، وخنق كل صوت لا يدين بمذهب أهل السنة .

وقد اختلف معاصروه فى تقديره وفى حياته وبعد مماته ؛ فهذا عبد اللطيف البغدادى يقول عند ما دخل الموصل : وتكلم الناس بهرجون فى حديث الشهاب السهروردى المتفلسف ، ويعتقدون أنه قد فاق الأولين والآخرين ، وأن تصانيفه فوق تصانيف القدماء ، فهممت لقصده ، ثم أدركنى التوفيق ، فطلبت من ابن يونس شيئاً من تصانيفه ، وكان أيضاً معتقداً فيها ، فوقعت على التلويحات واللمحة والمعارج ، فصادفت فيها ما يدل على جهل الزمان ، ووجدت لى تعاليق كثيرة لا أرتضيها ، هى خير من كلام هذا الأبله .

أما سيف الدين الآمدى فيراه كثير العلم قليل العقل ، ويروى أن الشهاب قال له : لا بد أن أمشى الأرض ، فقال الآمدى : من أين لك هذا ؟ قال : رأيت فى المنام كأنى شربت ماء البحر . فقال الآمدى لعل هذا يكون انتهاء العلم أو ما يناسب هذا . ولكن الآمدى لم يرجع عما وقع فى نفسه . وربما كان ذلك منسوباً إلى الآمدى كذباً ، لأنا نستبعد ذلك على رجل مثل السهروردى أو كان ذلك صادراً عن رأيه فى كرامات الأولياء ، وقد سبق لنا عرضه .

أما بعد موته ، فقد كتب كاتب على قبره بعد دفنه بظاهر حلب :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة
مكنونة ، قد براها الله من شرف
فلم تكن تعرف الأيام قيمتها فردها غيرة منه إلى الصدف

قال ابن خلكان : وأقمت بحلب سنين ، للاشتغال بالعلم الشريف ، ورأيت أهلها مختلفين فى أمره ، وكل واحد يتكلم على قدر هواه ، فمنهم من ينسبه إلى الزندقة والإلحاد ، ومنهم من يعتقد فيه الصلاح ، وأنه من أهل الكرامات ؛ وأكثر الناس على أنه كان ملحداً لا يعتقد شيئاً .

وللشهاب من المؤلفات كتاب التنقيحات فى أصول الفقه ، وكتاب الألواح العمادية ، وهو مجالة فى المبدأ والمعاد على رأى الإشراقيين ، وكتاب التلويحات فى ثلاثة علوم : المنطق ، والطبيعى ، والإلهى ، وكتاب المقاومات ، وهو لواحق على كتاب التلويحات ، وكتاب هياكل النور ، وقد شرحه جلال الدين محمد بن أسعد